إنسانية الإنسان فى الإسلام

الإنسان أكرم الكائنات على الله، خلقه فى أحسن تقويم، وتولاه بالإلهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم.

فقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾(١).

وفى هذه الآية يخبر الله سبحانه وتعالى.. أنه خلق الإنسان فى أحسن صورة وشكل، معتدل القامة، مستويا على عكس الحيوان.

وبجانب هذا .. أعده الله لشرف خلافته فى الأرض.. قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾(٢) وهو وإن كان مخلوقا من الطين، إلا أنه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر وتعيا عن إدراكه المدارك.

وناهيك بروح نسبها الله إلى نفسه.. وأسجد لحاملها ملائكته. فقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾(٣).

بهذه الروح امتاز الإنسان ، عن سائر عوالم الطبيعة، وصار عالما وحده، حاصلا على القدرة فى استخدام الوجود، وتسخيره فيما ينفع.. وقد أمده الله بما يناسب مطامحه، من حول وقوة، ووطأ له أكناف الكائنات، وذللها له.

ومن هذا ندرك.. أن الإسلام ينظر إلى الإنسانية عامة، نظرة التكريم والاحترام، ويرتب على ذلك حقوقاً عامة لجميع البشر.

فالعدل، والرحمة، والمساواة، فى الحقوق والواجبات.. أمور يفرضها الله لجميع الناس، ما لم يكن اعتداء، وخروجًا على سنن الله.

---

(١) التين: ٤.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) ص: ٧٢..

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١).

فكرمنا فى الآية الكريمة، تضعيف «كرم» أى جعلنا لهم كرماً وشرفاً ، وفضلا . . وهذه الكرامة، يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة، وحسن الصورة، وحملهم فى البر والبحر . . مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يحمل بإرادته ، وقصده وتدبيره.

وتخصصهم بما خصصهم الله به، من المطاعم، والمشارب، والملابس . . وهذا لايتسع فيه حيوان، اتساع بنى آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة . . وغاية كل حيوان، أن يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مركب.

والصحيح الذى يعول عليه . . أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله.

فالناس جميعاً، على اختلاف أجناسهم، وتمايز ألوانهم وتباعد ديارهم، وأقطارهم، يرجعون إلى أب واحد، وأصل واحد.

وكثيراً ما ذكر الله سبحانه وتعالى، هذه الحقيقة، فى آيات كثيرة، من القرآن الكريم ، وبينها فى أساليب شتى، وبعبارات رائعة.

لماذا كل هذا الاهتمام؟ لا شك أنه لكى يرعى الناس هذا الاعتبار، ويعيشوا فى إخاء، وتعاون، وتعارف، وتبادل.

قال تعالى: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(٢).

فقوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى فرعكم من أصل واحد، وهو نفس أبيكم آدم، وجعله تعالى إياهم صنوفا مفرعة، من أروقة واحدة . . من

(١) الاسراء: ٧٠.

(٢) النساء: ١.

موجبات الاحتراز، عن الإخلال بمراعاة ما بينهم، من حقوق الأُخوة.. وفى الوقت نفسه.. مدعاة للتعارف، والتبادل، والتعامل.

وقوله تعالى فى الآية نفسها: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من نفسها وجنسها.. وذلك ليكون بينها ما يوجب التضام، فإن الجنسية علة الضم.

وقد أوضح هذا بقوله فى آية أُخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وقوله تعالى فى الآيه السابقة: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد، والتناسل، رجالاً كثيرًا ونساءً.. وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[2].

فالله هو الذى أنشأ الإنسانية، من نفس واحدة، وهى الإنسان الأول، الذى تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد.. وهو آدم عليه السلام.

وفى إنشاء جميع الناس من نفس واحدة، آيات بينات، على قدرة الله وعلمه، وحكمته، ووحدانيته.

وفى التذكير بذلك.. إيماءٌ إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعاون، والتعارف، بين البشر.

وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل.. مدعاة إلى العمل الجاد، والتعاون الصادق.. لا إلى التعادى والتقاتل، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) الأنعام: ٩٨.

(٣) الحجرات: ١٣.

كذلك أحاديث الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه، تجيءُ مذكرة الناس، بحقيقة رجوعهم إلى أب واحد.. تأكيداً، وتوضيحاً، لتعاليم القرآن الكريم، وتقريراً لمبادئه وآدابه.

روى الطبرانى، أن النبى صلى الله عليه وسلم، خطب الناس. بمنى فى وسط أيام التشريق، وهو على بعير.. فقال: «يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر، ولا أحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألاهل بلغت؟ قالوا: نعم.. قال: فليبلغ الشاهد الغائب»[١].

وعن أبى موسى الأشعرى قال: قال: رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم.. ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنى الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم[٢].

فاهتمام الإسلام بالناس. فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام، فى نفس المسلم، الذى يقرأُ القرآن، ويستمع إليه، ويعمل به كما أن هذا كله.. يبين وحدة الجنس البشرى.

والقرآن الكريم.. لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعبًا معينًا بل يخاطب الإنسان بوجه عام.

فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً، رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر، بالله الخالق، عز وجل.

ومن هذا نعرف أن الإسلام، يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.. فهو يؤكد فى وضوح أن الدين الإسلامى، قد نظر نظرة فاحصة، دقيقة للإنسان فى ذاته، وتركيب كيانه النفسى والخلقى، والاجتماعى.

---

(١) التاج الجامع للأصول. الجزء الأول. ص ٦١.

(٢) التاج الجامع للأصول. الجزء الأول ص ٦١.

ونظر إلى الحياة التى يحياها هذا الإنسان فى دنياه.. معنى بالحياة والأحياء.. ورسم لهما أكمل صورة، تلائم ما يصلحهما معا.

فالحياة فى الإسلام.. تخضع لنظام دقيق، لا يسمح لجانب منها، أن ينمو على حساب جانب آخر.. وإنما تتوازن جوانب الحياة كلها، على نسق فريد، جاء به الإسلام دون سواه من الأديان، أو النظم الوضعية.. فهذه نظرة الإسلام للحياة.. وأما الأحياءُ من بنى البشر، فإن الإسلام نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم، وما يصلحهم.

واعترف الإسلام بأن للإنسان مطالبًا، لروحه، وعقله، وبدنه.. ونظمها بحيث تحقق له أفضل ألوان الحياة.

الإنسان فى داخل نفسه، ومع حاجاته الذاتية والروحية والعقلية والبدنية.

والإنسان فى أسرته.. تلك المملكة الصغيرة، التى يصلح المجتمع العالمى كله بصلاحها، وينهار ويتهاوى على ساكنيه بفسادها، أو جنوحها.

والإنسان مع المجتمع الكبير.. والإنسان مع الكون كله.. الإنسان فى كل هذه المجالات موضع اهتمام الإسلام.. ومن أجله شرع تلك النظم الخالدة الصالحة، لكل زمان ومكان، والمحققة للسعادة فى الدنيا و الآخرة.

الإنسان فى حد ذاته نفسه.. العالم المترامى، المليء بالرغائب والحاجات التى يسعى عمره لتحقيقها.. وتلك الجوارح من سمع، وبصر. وفؤاد وأيد، وأرجل.. يسخرها الإنسان لإشباع حاجاته الروحية، والعقلية والبدنية.

والشخصية الإنسانية فى الإسلام حقيقة حية.. والأسرة الاجتماعية فى الإسلام، حقيقة حية.

والإسلام لا يهدم شيئاً من كيان الاجتماع الذى استفاده بنو الإنسان، من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال.. لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية، كما يسردها القرآن الكريم، أن حياة النوع الإنسانى.. تاريخ متصل، يتم

بعضه بعضاً، وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، فى أُخوة عامة، لافضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح.. ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية، وفى الأُسرة، وفى الإيمان بوحدة النوع.

لكن ما مكان الإنسان من الكون كله؟

ما مكان الإنسانية من هذه السيارة الأرضية، بين خلائقها الأحياء؟

ما مكان الإنسان بين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟

أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع، يضمها عنوان: «الإنسان» ؟

وهى أسئلة لا جواب لها، فى غير عقيدة دينية، تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها، تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة حياته هو.. وحياة سائر الأحياء.. والأكوان.

وهذه العقيدة الدينية التى نستلهم فيها الجواب.. لا توجد اليوم لتنبذ غداً ولا توجد على الأيام للعارفين.. دون الجاهلين.. وللعاقلين دون الخاملين.. ولمن يطلبون الخير للناس.. دون من يعتقدون تسليماً ورهبة.. ولمن يصلون سعيهم إلى العلم والإيمان.. دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين. وقد يقعدون وهم يجهلون أنهم قاعدون، لا يعلمون ما الخبر؟ وما المنتظر؟ إن علموا أنهم منتظرون.

هذه العقيدة بنية حية.. قوامها دهور وأُمم، ومعايش، وآمال ونفوس خلقت، ونفوس لم تخلق.

والمنصف لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من القرآن الكريم.

لأن الناس استمعوا إلى المادية التاريخية.. فقالت لهم: إن الإنسانية عملة اقتصادية فى سوق الصناعة والتجارة.. تعلو وتهبط فى طبقاتها، بمعيار العرض والطلب، وصفقات الرواج والكساد.

واستمع الناس إلى الفاشية.. فقالت لهم: إن الإنسان واحد، من عنصر سيد، وعنصر مسود.. وأن أبناءَ الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد.

والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار، بغير اختيار.

واستمع الناس إلى العقلية.. فقال لهم قائل منها: إن إنسانيتهم شيءٌ لا وجود له.. ووهم من أوهام الأذهان.. وأن الشيءَ الموجود حقا، هو الفرد الواحد. وبرهان وجوده حقاً.. أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى.

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية، عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء، ومكانه من أخوته فى آدم وحواء.. سمعوا: أنه روح وجسد.. ودنيا وآخرة.. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره.. ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء.

وسمعوا: أنه إنسانان: إنسان صحيح مقبول.. وإنسان زائف مدخول.

صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه. وزائف مدخول من خلقه ونفاه.

وسمعوا: أن الإنسان يولد بذنب غيره، ويموت بذنب غيره.. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره، ويمضى بين النعمة، واللعنة، بقدر من الأقدار..

وبجانب هذا وذاك مرت الإنسانية على المادية الملحدة التى تعمل على أن تصبح الإنسانية بلا ماض، ولا تاريخ، ولا وجود. فوجدت إلحادا أعمى، أصم، يحاور ويداور ليشوه المعالم.

وبعض المذاهب المادية كالشيوعية وما يتفرع عنها من مذاهب.. لم تقف عند هذا الحد بل فلسفت الحياة فلسفة خاصة، وأرادت فى فلسفتها تحقيق آمال الإنسانية، عن طريق القضاء على الثروات والملكيات.. ففقد الإنسان الكرامة وحقه فى الحياة... وأرادت هذه الفلسفة الإشتراكية أن تسعد الإنسان عن طريق ملء بطنه فقط.. فاشترت منه الحرية رغما عنه، وأعطته مقابل ذلك خبزا، يأكله كما يأكل الحيوان وأرادت أن تزيده سعادة فى نظرها، فساوته بالآلة وأحاطته برعاية حمراء كالتى تستحقها الآلة، وأصبح الإنسان آلة فى «ماكينة» أو ترساً فى آلة.. وبهذا تحول الإنسان إلى حيوان.. يساق كما يساق الحيوان.

وجربت الإنسانية الرأسمالية المجردة من معانى الإنسانية.. فوجدتها أنها هى الأخرى قد فلسفت الحياة فلسفة خاصة.. لتسعد إنسانها الرأسمالى فحسب.. بل

ما كان منها إلا أن أطلقت لهذا الإنسان الرأسمالى، حريته المحجورة. وحررت غرائزه المكبوته، وألهبت مطامعه المجنونة.. وجعلت الدولة حارسة لهذه الحريات.. حتى ولو تحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة وإلى شذوذ فى الطبيعة وإلى عدوان على حريات الآخرين، وإلى استعمار بلاد الأبرياء، وامتصاص دماء الشعوب، ونهب خيراتها.. ونتيجة لهذه الفلسفة الرأسمالية، انتشرت أسواق النخاسة فى العواصم.. لبيع الشعوب والتآمر عليها والعدوان على أراضيها، وامتصاص خيراتها، واستنزاف مواردها.

أما الناس فى القرآن الكريم.. فهم غير ذلك كله.. فهم متدبرون، ويستمعون إلى صوت العقل كما يستمعون إلى صوت الإيمان إذا أطمأنوا إليه.

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول، بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله، فيما رأى وسمع.. ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسناً، واتقى سيئًا.

وإننا نرى أن الإنسان فى القرآن الكريم.. ذكر بغاية الحمد، وذكر بغاية الذم، فى الآيات المتعددة، وفى الآية الواحدة.

ولايعنى ذلك.. أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص، بما فطر عليه من استعداد لكل منهما.. فهو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف.

والإنسان مسئول عن عمله، ولا يؤخذ فرد بوزر فرد، ولا أمة بوزر أمة.

قال تعالى: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾[2].

---

(١) الطور: ٢١.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١).

أما مناط المسئولية فى القرآن.. فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع.

فالإسلام الحنيف.. ينظر إلى الإنسانية نظرة تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعاً، فى هذا الكوكب الذى أقامه الله تعالى فيه. ليكون خليفة له عليه.

وقد استعمل القرآن الكريم، لفظ الإنسان فى كثير من الآيات فتحدث عن خلق الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ ﴾(٢). ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(٣). ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾(٤).

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾(٥). ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٦). ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾(٧). ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦، ٧](٨). ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾(٩). ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾(١٠).

وكلمة الناس الدالة على الجنس البشرى، يتكرر استعمالها فى آيات متعددة.. وكثير منها ورد خطابا للبشر عموماً.. كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(١١). ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

---

(١) البقرة: ١٤١.
(٢) الحجر: ٢٦.
(٣) المؤمنون: ١٢.
(٤) السجدة: ٧.
(٥) الإسراء: ١١.
(٦) إبراهيم: ٣٤.
(٧) الكهف: ٥٤.
(٨) العلق: ٦، ٧
(٩) الانفطار: ٦.
(١٠) الانشقاق: ٦.
(١١) الحجرات: ١٣.

رَبَّكُمُ﴾[١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً﴾[٢].. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾[٣].

وورد فى معرض الحض على تقديم الخير للناس:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء ٥٨].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم، بمعنى الجنس البشرى عموماً لا بمعنى المسلمين أو العرب.. بدليل قوله تعالى فى الآيات التالية مما لايمكن حمله إلا على الناس عموماً:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً.. بل يخاطب الإنسان بوجه عام.. ويتحدث عن الأُمم: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠].

واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر، للدلالة على الجنس الإنسانى الواحد.. وقد استعملت هذه الكلمة، فى أكثر من موضع، كقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ [الحجر: ٢٨]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

---

(١) البقرة: ٢١

(٢) البقرة: ١٦٨.

(٣) يونس: ٢٣.

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ [الحجرات: ١٣] تشير بوضوح إلى أن كلمة الناس.. تشمل:

أولا: الذكور والإناث.. فهما جنس واحد. كما أشار إلى ذلك فى آيات أخرى. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ثانياً: تشير الآية بوضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام. وكلمة الناس هى التى تعبر عن الجنس العام الذى يشملهم جميعاً.

وأخيراً فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشرية، أُسراً وقبائل وشعوباً فى اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف.. وهو الشرط الأساسى، لتحقيق التعاون الذى أوصى به القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إن الإسلام جاءَ كما يفهم من النصوص القرآنية، ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق جلا وعلا.. فهم جميعاً عباد الله.. لا ليجعل شعبا معيناً، شعبه المختار.

والرسول الذى أُمر بتبليغ الإسلام.. خواطب فى القرآن على هذا الأساس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ولم يرسل ليكون هاديا لقومه وحدهم، كما أُرسل موسى هدى لبنى إسرائيل، وكما أُرسل عيسى إلى خراف إسرائيل الضالة... إنما أُرسل ليكون هو وقومه للناس جميعاً.

﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن هذا الاتجاه الإنسانى.. ظاهر فى تعاليم الإسلام، وتوجيهاته، والقرآن يصرح بأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض.

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان.. فإنه يتحدث عن الإنسان حديثاً يملأُ الصدر بدفء الأمل، وسعة الرجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود، تُغرى الإنسان بالوقوف عند كل موجود.

وكيف لا.. وهو يسمع نداءَ الحق سبحانه وتعالى له بقوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

(١) النحل: ٥ ـ ١٨

وتوحى هذه الآيات بما يلى:

أولا: تعدد نعم الله، وآلائه على البشر، وأن هذه النعم وفيرة فى الأرض وفى السماء، وفى البحر.

ثانيا: النظام الذى وضعه الله للعالم العلوى.. ثابت لا يختل فكل كوكب من هذه الكواكب، يجرى فى مداره، حسب نظام موضوع، وتوقيت مخصوص.

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

ثالثاً: توحى الآيات بالأدلة الكافية.. على أن الله واحد لا شريك له، وأنه الخالق للسموات والأرض، وما فيهما.

فالإنسان فى الإسلام.. ذلك الذى يمتلىءُ كيانه بمشاعر العزة والسيادة والقوة، والاستفادة بكل ما فى الأرض، من قوى يسخرها لسلطانه ويقوم بها على خلافة الله فى الأرض، مستصحباً فى ذلك عقله المحرر من كل ولاءٍ لغير الحق، المطلق من كل قيد.. غير قيد البر والإحسان.

ومن وراء كل هذا: الإنسان الذى يدخل فى إطار الرسالة الإسلامية التى جاءَ بها الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه.. لا يستطيع إلا أن يصدق بمحمد ﷺ وبالنبيين والمرسلين الذين بعثهم الله قبل رسالة محمد لإرساء قواعد الإخاء الإنسانى..

وهذا يشكل حلقة فى وحدة الإيمان التى أكد عليها الإسلام، الدين الذى جاءَ به محمد عليه الصلاة والسلام.. وتبناها فى جانبه العقائدى وتحدث عنها القرآن الكريم.

ووحدة الإيمان هذه حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها، وجود فواصل البعد الزمنى، بين الأنبياء الذين

(١) يس: ٤٠.

أرسلهم الله إلى عباده.. وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح فى اختلاف التشريعات التى يفرض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكرى، والمعاشى.. لمن تكون لهم... ولكن الإيمان يبقى واحداً فى أساسه.

وثمة آيتان فى القرآن الكريم.. تؤكدان هذه الحقيقة.. حقيقة الإيمان، وتغير التشريعات.

قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾[1]. وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

فالآية الأُولى: تعنى وحدة الإيمان فى أُسسه.

والآية الثانية: تعنى متغيرات الشريعة وما يعود إلى الأعمال.. والإيمان يعنى هنا: العقيدة ممثلة فى الأُصول التى يقوم عليها الدين.. هذه الأُصول تعنى:

أولا: الإيمان بالله رب العالمين، الذى لا إله إلا هو الواحد، المعبود، الذى لا شريك له، خالق كل ما فى الوجود.

ثانياً: الإيمان بالغيب: اليوم الآخر، والبعث والجزاء، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والملائكة.

ثالثاً: الإيمان بالنبيين، والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم وإرشاداتهم، والعمل بما نزل عليهم من وحى الله.

تلك هى أُصول الإيمان التى حملها كل نبى.

وقد جمعت هذه الأُصول.. آيات من القرآن الكريم، فى صدر سورة البقرة قال تعالى:

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) المائدة: ٤٨.

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

يؤمنون بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت ، والبعث .

ويقيمون الصلاة بفروضها، وإتمام الركوع، والسجود، والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى الصلاة والإنفاق من الأموال. فإن الصلاة والابتهال إليه، ودعاءه ، والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم.

قال تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2].

والآية كما ترى مشتملة على خمس عشر خصلة. وترجع إلى ثلاثة أقسام: فالخمسة الأُولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد. وآخرها قوله: ﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ وافتتحها الله بالإيمان، واليوم الآخر، لأنهما إشارة إلى المبدإ والمعاد.

---

(١) البقرة: ١ ـ ٤.

(٢) البقرة: ١٧٧.

والستة التى بعدها.. تتعلق بالكمالات النفسية، التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد.

وأولها: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾، وآخرها: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

والأربعة الأخيرة.. تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس.. وأولها: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ وآخرها: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ولعمرى من عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان».

فالإسلام فى جانبه الإيمانى العقائدى.. أكد هذه الأُسس، التى أكدها كل نبى.. ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة.. جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أُسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاءَ به رسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام..

وكلمة الإسلام فى الإطار اللفظى.. تعنى التسليم والخضوع وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم والخضوع لله وحده لا شريك له.

وبهذا المعنى أُطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله.. فأتباع كل نبى، وكل من يدين لله من الأديان السماوية.. هم مسلمون بهذا المعنى.. والقرآن الكريم.. اعتبر كل من آمن بالله تعالى، والتزم بطاعة أنبيائه مسلما.. سواء كان تابعاً لإبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1].

(١) البقرة: ١٣٢.

وَصَّى بهذه الملة. وهى الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: « أسلمت لرب العالمين» لحرصهم عليها، ومحبتهم لها[١].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣].

فلم يكن الإسلام مقتصراً على فئة دون فئة من المؤمنين.. فكل مسلم بحكم إيمانه وتسليمه لأمر الله.. هو من المؤمنين.

فالإسلام فى هذا الإطار، يتسع ليشمل كل من وضع قدمه وسار فى مسيرة الإيمان، ولكن الإسلام فى ظل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام أصبح مقتصراً على تلك الرسالة وحدها ومختصًا بها.

والآية الكريمة التى اعتبرت الدين عند الله الإسلام: «إن الدين عند الله الإسلام» تعنى مجموعة المبادىء الإسلامية، وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله.. إلى أن انتهى إلى المرحلة التكاملية فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التى جاءت إلى الإنسانية كلها.

إذن رسالة الإسلام.. هى الإسلام الشامل للإنسانية فى وحدة إيمانها بالله.. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[٤].. ولهذا كان الإسلام.. يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر

(١) تفسير ابن كثير. الجزء الأول ص ١٨٥.
(٢) يوسف: ١٠١.
(٣) آل عمران: ٥٢.
(٤) المائدة: ٣.

الدينى، يعرض لقضية البشرية، من نشأتها إلى غايتها.. ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعها.. سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية وتربوية.. ويشتمل أيضاً على شمول يضم الأديان كلها ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط فى سلك الذين أسلموا لله، والمؤمن بنص القرآن مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً.

قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[1].

ولهذا كله.. كانت الدعوة الإسلامية شاملة لكل أبناء الإنسانية.. تعمل لصالح المجتمعات الإنسانية كلها.

(١) البقرة: ٢٨٥.